

﴿ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفاً ﴾

صدق الله العظيم

من وحى الآية الكريمة كتب رضوان الله عليه ونفعنا بعلمه يقول :

هذا الحكم يفيد ويؤكد ويقطع أن هذا الضعف لن يزول عن الإنسان ، ولن يتخطاه مهما بلغ من أسباب القوة ، وجمع من معانيها والدواعي إليها : حيث الضعف صفته الأصلية بل هو الصفة الملازمة له التي لا تنفك عنه ؛ ولما كان الضعف صفة الإنسان وحقيقته الوجودية فلا شيء يمدّه بالقوة من المخلوقات أيا كان حيث لا موضع للقوة في تركيبه ، ولا محل للإمدادات المقوية في ذات نفسه الضعيفة ، فالمحاولة منه لتقوية هذا الضعف الطبيعي عبث وهراء ، وضلال وهباء ، فالله الذي خلقه وسواه خلقه كذلك ، فلا تغيير ولا تبديل لخلق الله . وقد علمت أخى وسيدى أن شعور الإنسان بهذا الضعف فيه هو السبب الأول في حمله على تلمس المقويات والأسباب إليها ؛ ولذلك يستنفد كل قواه الإنسانية في سبيل الحصول على القوة الموهومة التي لا يمكن الحصول عليها والبلوغ إليها حسبما يتصور ويتوهم ويفتنه الشيطان الموكل به . قال تعالى : ﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً * وَاسْتَغْفِرُ مَنْ اسْتَطَعْتُ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجِّلُكُ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ فانظر أخى إلى معاني هذه الآيات وتدبرها ، وقل رب زدنى علما . انظر أخى إلى ما ذكر الله من أسباب القوة حيث يتوهم الإنسان ويتصور ، وانظر إلى الشيطان كيف يعد ؟ وبم يعد ؟ ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ . ثم انظر رحمك الله إلى قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ لا حجة ولا برهان لأنهم أسلموا نفوسهم إلى ، وفوضوا أمرهم إلى وتوكلوا على : لما درجوا عليه من

صفات العبودية التي لا حول لها ولا قوة ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾
﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ وكيلاً لهؤلاء لأنهم شعروا بضعفهم فظهروا
بفقرهم إلى ، وافتقارهم على : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ . وقد علمت
أخى وسيدى أن الإنسان إذا رجع بهذا الضعف إلى الله الخالق البارئ تولاة الله
وقواه ؛ فلا يكون ثمة شعور إلى الاستقواء بما تتوهم النفس وتخيله من
الأسباب والمسببات ، وهذا شأن العارفين بالله من الأولياء الذين لا خوف
عليهم ولا هم يحزنون / وقد علمت أن ولاية المؤمن على قدر حساسيته
بالضعف ، ولذلك يتفاوت المؤمنون في الدرجات ويتباينون في المنازل
والمقامات على حسب الشعور والإحساس ، والذوق والوجدان . وقد علمت
أخى وسيدى أن الله تبارك وتعالى فضلاً منه ورحمة بين لعباده كيفية الرجوع
إليه ، وطريق الوصول إليه لئلا يكون للناس على الله حجة ، فله الحجة البالغة
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴾ اقصدوا ربكم بالطاعة والعبادة والامتثال والانقياد ، فإنكم عبيده
وهو مالكم ، فالرب هو المالك ، والعبد هو الخادم ، والعبادة الطاعة ،
والتعبد : التمسك والعبودية الذل والخضوع فالرب هو الذى خلقكم ضعافاً لذلك ،
وخلق الذين من قبلكم ، وقد ثبت ضعفهم برجوعهم إليه ، وهم كارهون الموت
عاجزون عن الرد والمقاومة ، لعلكم تتقون بهذه العبادة شر أنفسكم لما لها من
أثر التعرف إليه سبحانه ﴿ فَمَنْ بَيَّعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا

يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ فَادْكُرُونِي أذكركم واشكروا لى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ فاذكروني
بضعفكم أذكركم بقوتى ، اذكروني بفقركم وافتقاركم أذكركم بقدرتى وغناى ،
اذكروني بجهلكم أذكركم بعلمى ، اذكروني بذنوبكم البشرية الضعيفة أذكركم
برحمتى ومغفرتى ، اذكروني بكافة صفاتكم البشرية الضعيفة أذكركم برحمتى
وأفضالى ، اذكروني بجميع صفات ربوبيتى لكم وعليكم أذكركم بآثارها
وأفعالها فإنى على كل شئ قدير ، وبالإجابة جدير : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي
أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ

الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿١﴾ .

الدعاء عبادة ، والعبادة دعاء ، الدعاء ذكر ، والذكر دعاء . وقد علمت أخى أن العبرة بذكر الله عبده لا بذكر العبد ربه ، فذكر العبد وسيلة ، وذكر الله لعبده غاية ، العبد يتوسل بالذكر ، والرب يتولى العبد بالفيض . قال تعالى : ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ اذكروني أذكركم ، واشكروا لي ذكرى إياكم حيث ذكرى إياكم نعمة وفضل ورحمة ولا تكفرون : أى لا تنكرون ولا تجحدون هذه النعم عليكم سواء باستخدامها فيما لا يرضيني عليكم أو بإغفالها عن التقرب بها إليّ ، أو بنسبتها إلى أنفسكم وإلى ذكركم إياي ، فإن ذكركم إياي محدود لأنكم ضعفاء ، وذكرى لكم محدود لأنى قوى متين عليم حكيم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ استعينوا على ضعفكم البشرى بحبس أنفسكم عن الفزع والجزع ، وذلك بالصلاة التى بمعنى الدعاء والابتغال والضراعة واللجوء إليه سبحانه فإن الله بصفات ربوبيته مع الصابرين ، استعينوا على كسب الإيمان بالله بالصبر على ما تكره نفوسكم الضعيفة ، وبالصلاة التى بمعنى الصلة بالله ، استعينوا بالصبر عن المعاصي ، وبالصبر على الطاعات والعبادات ، وبالصبر على نيل الثواب ، وقبض الأجر ، وبالصبر على المصائب والبلايا التى تضيق بها نفوسكم الضعيفة ، فإن الله تبارك وتعالى مع الصابرين بالثواب والنعم المقيم ، ومعهم بالفتوحات الربانية ، وبالفيوضات الإلهية ، ومعهم بما يسد الفراغ البشرى من الأسباب والمسببات ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وقد علمت أن قوله تعالى مخاطبا للذين آمنوا : « استعينوا » بما ذكر من الصلاة والصبر دليل قاطع على ثبوت الضعف وعجز الإنسان وتقصيره ، وإشارة واضحة إلى أن علاج هذا الضعف محصور فى احتمال المكاره ، وتحمل المشاق ، وفى الطاعة والعبادة التى أولاها بالذكر الصلاة بمقتضاها الشرعى ، وبواقعها الحقيقى ، فالصلاة صلة بين العبد والرب . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَخَلْقٍ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى

الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١﴾ وقد ذكر الله أن الاستعانة بالصبر والصلاة لكبيرة إلا على الخاشعين ، ثقيلة شاقة لا تحملها إلا النفوس الخاشعة المتواضعة الذليلة ، النفوس المستسلمة لأمر الله الراضية بحكمه وقضائه ، الراغبة الراهبة . فالخشوع : التواضع والخضوع وما إلى ذلك من صفات العبودية الصادقة الخالصة ، وقد علمت أن قوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّمَا لِكُبْرِهِ ﴾ : إشارة واضحة إلى مدى ما تنطوى عليه النفس من صفات العظمة الاستقلالية ، ومن خصال الطغيان البشرى حيث يشق عليها ويثقل طلب المعونة من الله بتعاطي التكاليف الشرعية ، ولذا قال تعالى : ﴿ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ وفي هذا البيان إشارة إلى أن الاستعانة خفيفة بالنسبة للخاشعين كبيرة بالنسبة للمتكبرين . أعاذنا الله وإياكم من الكبر والتكبر والعجب والغرور . وقد علمت أخى أن واجد الكفاءة في نفسه لا يستعين بغيره ، والشاعر بالقوة لا يمد يده إلى من سواه ، والمستغنى عن الشيء لا يجتد في الأسباب إليه ، ولذلك فهو في حلّ منه لأنه ليس في حاجة إليه ، وقد أمرنا الله بالاستعانة بعامة وبخاصة لما يعلم من ضعفنا البشرى ، وحدد سبحانه صفات الاستعانة بالصبر والصلاة ، وهذا القول ينفي الاستعانة بغيرهما ، أى لا استعانة إلا بالصبر والصلاة ، فمن طلبها بغير الصلاة والصبر فقد ضل الطريق إلى الله . قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ﴾ ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

أخى : قلنا إن الإنسان ضعيف .. ضعيف جدا ، ولشدة ضعفه يتعذر عليه ضبط شهوته والتحكم في أهوائه وحفظه ، وهو يعلم يقينا أن هذا فساد وضلال ، وسوف يعذب بها في النار ويخلد فيها مهانا ، ولشدة ضعفه يقبل على الدنيا ويتهافت عليها تصورا منه أن وفرة الأسباب وكثرة المتاع متمم لنقصه مقوّر لضعفه مسعد لحياته الحاضرة ، والغريب أنه يؤمن بفناء الدنيا وزوالها ولكن ضعفه يحول بينه وبين الوقوف عند حد ، ولشدة ضعفه يعجز ويقصر عن تحمل البلايا والمصائب ولذلك يفرع ويجزع بصورة متعارضة مع دعوى العقل والفهم ، ولشدة ضعفه يفر من الطاعات وينفر من العبادات لأنه لا

يحملها ولا يجد القوة على الاستئناس بها لأنه عجول ، وخلق الإنسان عجولا ، والطاعات والعبادات أجورها مؤجلة ، وثوابها مؤخر ، وهو لضعفه لا يحتمل الصبر إلى الآجل ، فهكذا أخى خلق الإنسان ضعيفا ، القليل من السَّراء يفرحه ويطغيه ، ويسره ويغريه ، والقليل من الضراء يعكر صفوه ويخلط مزاجه ، ويفسد تفكيره ، ويعطل عقله . ولما كان الله الذى خلقه وسواه يعلم ذلك منه وهو العليم الحكيم ، الرؤوف الرحيم ، الحكم العدل ، اللطيف الخبير ، جعل لهذا الداء دواء ، وخلق لهذا المرضى علاجا وشفاء . قال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ ولما كان الصبر من أصعب الأمور على الإنسان ومن أمر المحتملات عليه حيث هو أشد أثرا من البلاء الذى تقتضيه المصيبة وتدعو إليه . قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ولولا هذه المعية الربانية ما صبر صابر ولا تصبر متصبر ، فالحمد لله والشكر له . ومن هنا نعلم أن الاستعانة بالصبر تكسب المعية الربانية فورا ، قال رسول الله ﷺ : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » أو كما قال . وقد علمت أخى أن ملازمة الضعف للإنسان فى جميع أطوار حياته تقتضيه ملازمة الصبر فى جميع أطوار حياته حيث الصبر على كل ما تكره النفس وتضيق منه وبه : صبر عن المعصية ، صبر على الطاعة ، صبر على المصائب والبلايا ، صبر على حرارة الشهوات وما إلى ذلك من أهواء النفس ، فإن كل ما يصدر من الإنسان خيرا أو شرا ، نفعا كان أو ضرا ، مفتقر إلى الصبر وعلى الصبر ، فلا حول ولا قوة إلا بالله . وقد ذكر الله الصبر أولا لأنه من أعمال القلب ومن صفة القلب ، فلا دخل للجوارح فيه ولا صلة لها به ، ثم ذكر الصلاة باعتبارها مشتركة بين القلب والجوارح والأعضاء ، ومن هنا نعلم أن أثر الصبر فى القلب يظهر على الأعضاء بكيفية الصلاة ، فالصلاة فى عالم الشهادة دليل على الصبر فى عالم الغيب ، حيث القلب غيب ، والرَّب غيب ، والأجر على الصبر فى الغيب . قال الله تعالى مشيرا إلى أن الجزاء على الأعمال التى مصدرها القلب ﴿ إِنَّمَا يُؤَفِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ ولم يقل المصلين ، لأن الصلاة قد تكون بلا صبر ، وهى الصلاة التى أشار إليها ربنا سبحانه بقوله تعالى : ﴿ قَوْلِيلَ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ

صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿١٤٠﴾ أما الصلاة التي هي وليدة الصبر وجنينه هي التي ذكرها الله بقوله : ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَخُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿١٤٢﴾ ومن هنا نعلم أن الصلاة صلاتان : صلاة الصابرين التي تحصل بها الاستعانة ، وصلاة الساهين المنقطعة الصلة بالسماء ، هي الصلاة الأرضية التي لا يعرج بها المصلى إلى مولاه ، هي الصلاة التي تربط الإنسان بالإنسان في ثنایا الرياء والشرك ﴿١٤٣﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿١٤٤﴾ لقد كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة حيث الصلاة مفتاح العبودية ، وهي الباب الذي يدخل به العبد إلى ربه ، ولذلك أمر الله بالاستعانة بالصبر ثم الصلاة ؛ لأن الصبر يورث الثبات واليقين ، والطمأنينة والاستقرار ، وينتج منه الرضا والتسليم بقضاء الله وقدره ، وبعد ذلك يكون الاتصال بالصلاة حيث يكون الاستعداد تاماً ومهيأً للدخول والمعراج والوصول ، فالحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ومن هنا نعلم أن الصبر تهيئة ، والصلاة إقبال ، والصبر صفة ، والصلاة سعى ، والصبر غذاء والصلاة هضم ، والصبر رضا والصلاة تسليم ، والصبر طرق للباب والصلاة فتح للباب .

- وقد علمت أخى أن الصبر والصلاة في اقترانهما كالشهادتين في اقترانهما .. أشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمداً رسول الله ، فلا تصح الأولى إلا بذكر الثانية ، وكذلك لا قيمة للصلاة ولا وزن لها إذا لم يكن صبر ، ولا استعانة بالمعنى الحقيقي إلا بالجمع بينهما كما ذكرهما الله في الآية الشريفة مقترنين ، وكذلك الشأن في الحكم على الصلاة والزكاة ﴿١٤٥﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿١٤٦﴾ .

وقد علمت أخى أن الاستعانة لا تتحقق إلا بالصبر . قال تعالى : ﴿١٤٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٤٨﴾ فالاستقامة تتضمن الصبر

ضمنا حيث لا استقامة بلا صبر لأن الاستقامة معناها الاتجاه إلى الله كلا
 وجزءا ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۝
 وَلَسَوْفَ يَرْضَى ۝ ﴾ . والاستقامة هي القصد بالعمل إليه سبحانه والاستقامة
 أساسها الصبر ، يشير إلى هذا قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ فإن
 انتظار التنزل لا بد له من صبر وتوقعه يحمل على اكتساب الصبر . وفوق كل
 ذى علم علم ﴿ إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . وقد علمت
 أخى أن قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ يفيد أن هذه المعية تكسب
 الاستقامة وتحققها ، فالله المستعان والشكر له . ومن هنا نعلم أن الطريق الأول
 في كسب مرضاة الله ، وفي اكتساب معية الله في كل الأوقات واللحظات
 بالصبر ثم بالصلاة بمعناها الشرعى ثم بمعناها اللغوى لتحقيق الضراعة والابتهاال
 والدعاء والخشوع والخضوع ، وما إلى ذلك من صفات العبودية وخصالها .

أخى : قال الله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴾ ثم قال : ﴿ وَكَانَ
 الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ ثم قال : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۝ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ
 يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ ثم قال : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكٍ لَّشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُ لِحُبِّ
 الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ فانظر أخى إلى ما وصف الله به هذا الإنسان وإلى شتى
 التركيبات التى عليها قوام إنسانيته ، فوالله إنه لعجيب وإنه لغريب مخلوق هذه
 صفاته فلا شبهه له فى سائر خلق الله ، وحيد فريد من نوعه فلا نظير له :
 ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝
 فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ . فانظر أخى وتدبر ، وقل رب زدنى علما .
 وأحسبني قد ذكرت ما يحضرني من الآيات التى وصف الله بها هذا الجنس
 الإنسانى الذى ينحصر فى : أنا ، وأنت ، ومن على شاكلتنا من الإنس ، فلا
 حول ولا قوة إلا بالله .

أخى : إن الله الذى خلق الإنسان بهذا الشكل من الأوصاف ، وبهذا
 النوع من الطباع والأشكال كلفه بطاعته ، وأمره بعبادته ، ودعاه إلى معرفته .
 قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ . ومن هنا نعلم أن
 كل ما ذكره الله عن هذا الإنسان ووصفه به هو السبيل وهو الطريق إلى عبادته

وطاعته ، والتعرف عليه ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا ﴾ ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَّا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَّا اكْتَسَبَتْ ﴾ لها أجر ما كسبت من الأعمال الصالحة بمقتضى صفاتها الخيرية ، وعليها وزر ما اكتسبت من الأعمال السيئة بمقتضى صفاتها البشرية ، وقد فرق الله في القول بين الكسب والاكتساب ، باعتبار أن الكسب ثوابه مؤجل والاكتساب ثوابه معجل ، فالكسب صفة ، والاكتساب اتصاف ، الكسب فعل ، والاكتساب افتعال ، فللنفس أجر كسبها ، وعليها وزر اكتسابها ، حيث الكسب فطرى ، والاكتساب تكلفى ، الكسب ممدود ، والاكتساب محدود ، فالحسنة باعتبارها من كسب الفطرة تنمو وتضاعف ، والسيئة بواحدة لأنها اكتساب ، فالكسب جزاؤه من الله ، والاكتساب جزاؤه من النفس ، وهذا هو الفرق ، وفوق كل ذى علم عليم .

وقد علمت أخى أن المطلوب من هذا الإنسان الموصوف أن يتجه إلى ربه بخير هذه الصفات ولكن الشيطان العدو المبين يكاد يتجه به إلى شر هذه الصفات وإلى ما يحقق هلاكه ، والحرب سجال ، والله ولى التوفيق . وقد علمت أن الله تبارك وتعالى أمرنا بالاستعانة به حيث الانتصار على الشيطان لا يكون إلا بالله ، فالاستعانة منمية للملكات الخير في طبيعة المؤمن ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا . وقد علمت أن المؤمن كلما ازداد علما بحقيقته الإنسانية وازداد يقينا بطبيعته البشرية فرّ إلى الله العلى القدير ، ونظر إلى من بيده الأمر اللطيف الخبير . قال تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ فالمؤمن الحق الصادق الإيمان بالله ، كلما ازداد قربا إلى ربه وتقربا إلى خالقه ازداد علما بنفسه ، فمن هداية إلى هداية ولا نهاية للهداية ، والله يتولى الصالحين من عباده .

فاعلم أخى أن الأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة يفيد ويؤكد مدى ضعف الإنسان ، ومدى ما هو معرض له من الأخطار ، وليس ثم خطر من الله ، ولكن النفس بمقتضى ضعفها تتصور الأخطار وتفزع منها ؛ فإنها لا تريد أن تُمسّ قط ، ويجب أن يكون كل شيء على مزاجها وحسب هواها ؛ ولذلك تتألم من كل ما يضايقها ، ولأنها كذلك حيث خلقها الله على هذا الوضع أمرنا

بالاستعانة على ضعفها بالصبر والصلاة ، ولما كان الأمر مطلقا يستفاد منه أن الضعف كذلك مطلق ، وقرن الصبر في الذّر بالصلاة يفيد فرضيته كما هو شأن الصلاة ، ولأن الصبر من الأعمال اليومية كما هو شأن الصلاة جمع الله بينهما في الذكر ، ولم يقل استعينوا بالصبر والزكاة ، أو غيرها من المفروضات .. فتدبر .

ولما كانت الصلاة صلة بين العبد والرب وعروجا من الأرض إلى السماء يريد الله أن يكون الصبر على شاكلتها من حيث الامثال والاحتساب ، فالصلاة خشوع وتذلل ، فكذلك الصبر يكون على هذه الصورة ، والاستعانة به على الشدائد ، فالاستعانة معناها طلب العون من الله ، وطلب العون منه عز وجل لا يكون إلا بشهود الضعف ، فالضعف على أى حال موجود ، والإنسان لا يخلو من الشعور ، ولكن المطلوب التعرض به إلى الله القوى ، والتعرض معناه اللجوء إليه والاستعانة به ليخفف البلاء ، ويهون على النفس أمرها بحيث يسهل عليها الاحتمال مقابل الإيمان بالأجر المقدر ، والتوفية المرتقبة : ﴿ إِنَّمَا يُوفِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فالحمد لله .. فالصلاة أيها الأخ تجرد من الدنيا وخروج من المألوفات ، وكذلك الصبر ينتصب به المؤمن أمام ربه فيستقيم عليه مجردا من التعاليل ، لو كنت وكنت فإن لو تفتح باب الشيطان ، فالصلاة فرض لا بد منه ، وكذلك الصبر ، ولذلك قال الرسول ﷺ : « لا إيمان لمن لا صبر له » وللعلم أقول : إن الصبر الاضطرارى شأنه شأن الصلاة العادية التى لا أثر لها في تهذيب النفس ﴿ قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ... الآيات . واعلم أخى أن الصبر عصب الإيمان حيث لا قوام لشيء ما لم يكن له عصب . والرضا الذى يعقب الصبر هو روحه .. روحه .. روحه .. وحياته ونوره ، فلا إيمان لمن لا صبر له ، ولا معرفة لمن لا رضا له ، ولا محبة لمن لا معرفة له ، ولا فناء لمن لا محبة له ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ . فهذا قد رجعنا إلى الأصل الذى هو الاتباع والاقتداء ، ولكن بصورة قوية ، وإحساس عميق ، وروح أصيل ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ .

أخى : يتبها لى أن حروف الكلمة (الصبر) تتضمن الآتى : الصاد : صدق ، والباء : بر ، والراء : رضا . كما أن كلمة (آمن) تتضمن الآتى : الألف : الله ، الميم : محمد ، النون : النور ، الذى هو الكتاب (القرآن) . وما علينا ، ليس هذا موضوعنا .. أخى : إن الصبر مفتاح الخير ، ولذلك يتلى الله عبده المؤمن بما يفقره إلى الصبر من الأسباب والدواعى ، وقد علمت أن حياته كلها مفتقرة إلى الصبر ، والصبر أقسام كما تقدم : صبر عن المعاصى ، صبر على الطاعات بمعنى التجرد من رؤيتها ، وصبر على الطاعات أيضا بمعنى التفويض إلى الله فيما لها وعليها ، وصبر عن اللغو والفضول من أحاديث وأفعال وأعمال ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ ، وصبر على الوقائع اليومية المضادة للرجبات النفسية ، وصبر على الحرمان من التوفيق إلى الخير مع الإشراف عليه ، وصبر ... وصبر ... وصبر ... فما أريد أن أشق عليكم بأكثر من هذا ، فوالله إن الحياة كلها خيرا وشرا تفتقر إلى صبر ورضا ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ يهdy الله من يشاء إلى ما يشاء ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ فالحمد لله والشكر له .

أخى : لقد علمت — وفوق كل ذى علم عليم — أن حياة المؤمن كلها بلايا واختبارات فى اليوم الواحد يتلىه الله بالكثير من أنواع البلايا والمصائب ، ولكن وجود الحجاب بين العبد وربّه يحول بينه وبين العلم بالمراد ، ولذلك يقضى اليوم وهو على غير بالٍ ، ومن هنا نعلم مدى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ حيث الحياة بكافة معانيها ابتلاء ، ولكن إذا أصاب الإنسان فى يومه شىء فى دنياه تذكر البلاء ، وشعر بالمصيبة كأن السماء انقضت على الأرض ، ومادت الجبال هداً ، لماذا؟؟ لأن الدنيا هم الأكبر ، وشغله الشاغل ، فالدنيا لاشك فى ضرورتها ولكنها ليست الغاية التى عليها المدار ، ولأن البلاء كما ذكرت : قرن الله الصبر ذكرا مع الصلاة حيث قال : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ فالصلاة يومية ، وكذلك الصبر حيث لا صبر إلا مع البلاء أو على البلاء ، والصبر سابق على الصلاة فى الذكر ؛ حيث به تتكون الصلة التى بها الاستعداد للصلاة ، فالصلاة عروج واتصال وانتقال من

حالٍ إلى حال ، صعود من الأرض إلى السماء ، وتفرغ من شوائب النفس
والحياة إلى ما هو أعلى وأسمى من الأسباب . فلو لم يكن الصبر سابقا لها لما
يكون الصبر عليها ، حيث الصبر معناه احتمال الضيق بسبب البلاء ؛ وكذلك
في الصلاة احتمال ضيق النفس من التقيد والارتباط فإنها تضيق ذرعا من
الامثال أمام خالقها . والله يهدينا وإياكم سواء السبيل .

* * * *